من أيام الفتوح

من مؤتة إلى اليرموك

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

فى العام الثالث بعد السنة من الميلاد ، وذلكم قبل بعثة الرسول بست سنين، اشتعلت الحرب بين الروم والفرس . وهى حلقة من سلسلة طويلة من الحروب بُدِئت منذ ظهر الرومان فى غرب آسيا، واستمرت بين الرومان والأشكانيين ، ثم ورثها السلسانيون والبيزنطيون حتى شغلت من التاريخ سبعة قرون بين الاشتعال والخمود . وهذه الحلقات الأخيرة التى سبقت البعثة واستمرت بعد الهجرة سبع سنين قد اهتم بها العرب ونزلت فيها آية من القرآن : « غُلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيَغلبون ، فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . انتصر الفرس فى عهد كسرى برويز على الروم زهاء عشرين سنة متوالية فسلبوهم كل ما ملكوا فى آسيا ، وفتحوا بيت المقدس وأخذوا الصليب الكبير ، ثم غلبوهم على مصر . وظهرت جيوش الفرس على أبواب القسطنطينية مرات . وظن الناس أن الروم لا تقوم لهم قائمة

ثم أجمع الروم أمرهم ، وقادهم هرقل من ظفر إلى ظفر خمس سنين أتت على كل ما ناله الفرس فى الحروب المتمادية . وخلع كسرى برويز بعد أن أخرجته الهزائم من دار ملكه ومات ذليلاً حزيناً ، وخلفه ابنه قباد الثانى فصالح هرقل على أن يرد على الروم كل ما سلبوه فى آسيا ومصر وأن يرد الصليب المقدس . وسار هرقل فى أعظم مواكبه إلى بيت المقدس ليضع الصليب موضعه فى ديسمبر سنة ٦٢٩ م . وبلغ هرقل من العزة والهيبة والصيت ما بلغ

— ٢ —

فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة بعد غزوة خيبر بشهرين وجه رسول الله ، ثلاثة آلاف من أصحابه إلى الشام ، وجعل القيادة لزيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبدالله بن رواحة . وكان هذا إيذاناً ببعد الشقة ، وجسامة المطلب، وعظيم الخطر

لماذا سيّر الرسول صلوات الله عليه جيشاً لحرب الروم فى أرض بعيدة ؟ يقول المؤرخون أن الغسانيين قتلوا رسوله إلى أمير بصرى ؛ ولكن أحسب الأمر أوسع من هذا فقد أراد المسلمون أن يرهبوا الطامعين فيهم ويعرفوا موقف القبائل العربية الضاربة فى سلطان الروم من المسلمين : أحرب هم أم سلم .

سار المسلمون إلى مَعان فإذا هرقل الذى حالفه الظفر خمس سنين حتى رد إلى سلطان الروم ما أخذه الفرس وزلزل سلطان كسرى فى ديار كسرى — قد جمع فى مآب جموعاً حاشدة من الروم والعرب — وتشاور المسلمون وهمّوا بأن يكتبوا إلى الرسول ولكن ابن رواحة قال : « يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له ؛ خرجتم تطلبون الشهادة ؛ وما نقاتل الناس بعدد ، ولا قوة ، ولا كثرة . ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحُسنَيين : إما ظهور وإما شهادة » .

التقى الجمعان عند مؤتة وهى قرية فى البلقاء التى تسمى اليوم شرقي الأردن ، إلى الشرق من الطرف الجنوبى للبحر الميت . واستعرت الحرب وقاتل زيد بالراية حتى قتل ، وتقدم جعفر للشهادة فقاتل حتى نالها . وتلاه ابن رواحة فقتل . فاجتمع الناس على القائد المحنّك المظفر خالد بن الوليد فقاتل كما يقاتل خالد حتى تراجع بالجيش الصغير فأنقذه من الجموع المطبقة عليه فعَمل القائد الحازم لا يهلك جيشه فى معركة خاسرة .

ثم شغل المسلمون بفتح مكة وما تلاه من الأحداث . وبعد سنة من موقعة مؤتة دعا الرسول إلى غزو الروم « فى زمن عسرة من الحر ، وجدب من البلاء » زمن تدعو فيه إلى الحرب إلى ضرورة لا مناص منها . وعلم الناس أنهم يدعون لغزو الروم ، غزو بنى الأصفر وهم يعلمون من سلطانهم وقوتهم وانتصارهم على الفرس ما يملؤهم هيبة . حتى قال بعض المنافقين : « أتحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ؛ والله لكأنى بكم غداً مقرنين فى الحبال »

سار الجيش إلى تبوك ، وكانت على حدود البلاد الخاضعة لسلطان الروم فى الشمال ؛ فأقام بضع عشرة ليلة وصالح الرسول صلوات الله عليه أهل دومة الجندل وأيلى وجربار وأزرُح . ورجع المسلمون وقد صالحوا من صالحوا وأرهبوا القبائل الضاربة فى الشمال ، وأعلموا الروم أنهم غير عاجزين عن الجمع والسير للقتال . وكانت غزوة ذات أثر فى تمكين هيبة المسلمين فى القبائل الشمالية ، ومحو ما أصاب المجاهدين فى مؤتة ، والتمهيد لإقامة سلطان الإسلام فى تلك الأرجاء

— ٤ —

ثم أعد الرسول جيشاً للسير إلى البلقاء حيث تراجع المسلمون فى غزوة مؤتة وجعل عليه أسامة بن زيد أول قائد للمسلمين